باختصار؛ "الصفقة" ليست خطة سلام

بقلم: المتوكل طه

يبدو أن العُقد التوراتيّة والشطحات اليهومسيحيّة قد وجدت لذاتها مرتعاً خصيباً في مسكب البيت الأبيض، الذي راح يغزل بتلات الخرافات التوراتية والترجمة السياسية للنصوص الحاخامية، صفقةً، قلّ نظيرها من حيث:

1 – أن هذه الصفقة تؤكد على الحق المزعوم والوَهْم المصنوع لليهود في كل أرض فلسطين التاريخية، ما يعني أنها تفتح الأبواب على مصاريعها لتوفير كل الآليات لتفريغ الأرض من سكانها الأصليين "الشعب الفلسطيني"، ما ينذر بترانسفير مُفزع، ستقترفه قواتُ الاحتلال، إذا ما توفّر المناخ المواتي له. ولعل "يهودية الدولة" هي التعبير الأدقّ لجوهر الترانسفير وادعاء اليهود لملكية فلسطين. إذ إن هذا المصطلح يعني أن الأرض "لهم"، وبالتالي فإن الحق "كان معهم" عندما اقترفوا المجازر لـ"تطهيرها" من السكان "الطارئين"! ثم إن هذا يعني حقهم في "تنظيف" الأرض وتفريغها مِما بقي منهم، عداك عن أنها تغسل أيدي العصابات الصهيونية من دم الأبرياء، وأن لا حق مستقبليّاً أو حاضراً لأي أحدٍ من الأغيار "الغوييم" غير اليهود.

2 – أن هذه الصفقة لا تتمتع بأي مواصفة تذكر من مواصفات أي حل سياسي، فهي موقف شخصي عقديّ اعتباطي، اكتسب أهمية ما، فقط، لأنه صدر عن رئيس الإدارة الأميركية. وهذا يعني عدم جواز أو قبول أو حتى التفكير بالتعاطي مع هذه الصفقة لأنها تفتقد إلى كل شيء بالمطلق. فضلاً عن أنها تهشّم أحكام القوانين والمعاهدات وأسس النظام الدولي والتوافقات الإقليمية والدولية لحلّ الصراع، وتنحاز بشكل أعمى كليّاً لطرف دون آخر، وتجعل هذا الطرف فوق المساءلة والقانون، ولا تلقي بالاً للقرارات الدولية والتعهّدات التي طالما ترددت في البيت الأبيض نفسه.

3 – أن هذه الصفقة تكشف عن سطوة الإدارة الأميركية في العالم وتبرز قدرتها الفظّة والفاشية على تحطيم كل البناءات التي تنهض عليها العلاقات الدولية والقوانين التي تصون الحقوق. كما نرى خفوت صوت العالم، إمّا المتطامن خوفاً أو طمعاً من أميركا، أو العاجز عن مواجهتها، ما يعني أن الضعفاء في هذا العالَم والمذبوحين منهم على مقاصل الكارتيلّات الأميركية.. سيظل دمهم يجري بين أقدام أصحاب المصالح أو الطامعين أو الخائفين أو العاجزين. وأمام كل ذلك يتقدّم سؤال حارق من جديد، أمام الشعب الفلسطيني: ماذا سنفعل وقد دَهَمَتنا هذه الصفقة المتوقعة؟

لا أدّعي أنني أمتلك الإجابة على هذا السؤال، غير أني أتفق مع القائلين على أهمية وسرعة وضرورة إنجاز الوحدة الوطنية الفعلية والحقيقية بعيداً عن المناكفات الخائبة، وإعادة النظر في المؤسسات لتصبح قادرة على حمل أثقال المرحلة، وإعادة بناء وتفعيل وإنهاض منظمة التحرير، بما يكفل عودة دور النُخب الفلسطينية من فصائل ومنظمات شعبية وإعلام وثقافة... الخ، على قاعدة الرؤية والإستراتيجية الجامعة. كما أن المواقف الفلسطينية والعربية والإسلامية الرافضة للصفقة، لا تعني شيئاً سوى الإجهاش باللغة المحنّطة والمكرورة.. ما لم تكن مشفوعة بتحويل تلك المواقف إلى سياسات ملموسة، تشكّل سدّاً مانعاً أمام طوفان الصفقة، وتعزّز الحضور الفلسطيني الفاعل والقادر على التصدّي والمرابطة والتمسك بالأهداف والتطلعات.

ولا يجوز لأحد أن يَسِم هذه الصفقة أو يعرّفها بأنها "خطة سلام"، لأن مَنْ يقرأ بنودها يكتشف بأنها وصفة للحرب وتعميق للكراهية وعتبة لمواصلة الصراع، وتغليب لطرفٍ

معتـدٍ، واختلال للموازيـن.. لهذا، أيضاً، لا ينبغي لأيّ كان أن يقوم بتسـويق هذه الصفقة الملعونة، لأن الصفقات تتم بين طرفين أو أكثر، فأين الفلسـطينيون؟ إن هذه الصفقة تلغي الوجود الفلسـطيني من أساسـه، وتبدّد حقوقه التاريخية، وتعرّضه للفناء، وتجعله إمّا تحت نير الاحتلال وإجراءاته أو في فراغ الشتات المدوّي.

ونـرى أن ترامـب ونتنياهو قد تغيّا كل منهما شـيئاً آخر من هـذه الصفقة؛ وهو إنقاذ مصيره وإعـادة انتخابه، ولم يكن في بالِهما، حسـب توقيت إعلان الصفقة، سـوى ذلـك، باعتباره، أيضاً يؤكد على ما يؤمنان به من سياسـات تسـتهدف إلغاء الطرف الأسـاس، وهو الشعب الفلسطيني، ويكرّس الوجود الغاصِب للصهيونية على الأرض، وينفي أي إمكانية لتحقيق الحدّ الأدنى من المطالب الفلسطينية المشروعة.

أمـا المسـتوطنون، الذيـن ابتهجوا بخطـوة ترامب هذه، فإنهـم أعلنوا عن مسـاعيهم لجعل أعدادهـم تبلـغ المليـون في مسـتوطنات الضفة، كـما أعلنوا أيضاً أنهـم لن يقبلـوا بالصفقة لأنهـا تُبقـي عـلى "الغوييم" بين أحشـائهم.. لهذا، فهـم يلحفون عـلى ضرورة وسرعة خلع الفلسـطينيين وطردهم من بيوتهم وحقولهم، بالحرق والهدم والترهيب والتجويع.. اعتقاداً منهـم بأن هـذه هي "الأرض الموعودة" التـي لا ينبغي أن يكون عليها سـواهم! باعتبارهم ورثة الوعد الرّباني! وأن "الغوييم" يجب أن يشـدّوا الرحال في الأصقاع بعيداً في المتاهات، وأمّـا الذيـن يبقون منهـم على هذه الأرض فمصيرهـم أن يصبحوا عبيداً أو سـقّائي ماء أو موتى تحت التراب.

إن هذا المنطق الفاشيّ الاسـتيطاني المستند إلى نصوص "الحِيرم" التوراتي الدمويّ، هو المناخ المناسـب لتفجـير الصراع المتفجّر أصلاً، أو بعثه بحدّة وعنـف، بكل ما يحمله من تداعيات وضجيجٍ للكراهية والعداء والفوضى.

إن سبعة ملايين فلسطيني راسخون في أرض فلسطين التاريخية، لا يمكن لقوّة بشرية، كائنة مـا كانت، أن تقتلعهم، ثانيـةً، من جذورهم، ولن يخرجوا من دورهـم وبيّاراتهم ومحلاتهم وأرحـام أمّهاتهـم، وإن نظام الأبرتهايد العنصري الإسرائيلي الذي يُمارس بأعتى الأشـكال وأكثرهـا تطوراً على الشـعب الفلسـطيني، هـو الوصفة الثانيـة الكافية لجعل الـصراع دائماً ومؤبداً بين أصحاب الأرض الشرعيين وبين الطارئين المحتلّين الغاصبين. وإن سبعة ملايين

آخرين من اللاجئين، يحملون فلسطين في قلوبهم وعقولهم وأجنّات بطون زوجاتهم، إلى أن يعودوا كاملين إلى أرضهم الأولى.

إن الأدبيات التي أصّلت مدارك رئيس وزراء دولة الاحتلال، وجعلته ينتج كتابه الذي يعرّي مواقفه الحاخاميّة "مكان تحت الشمس" هي ذاتها الأدبيات التي كوّنت فكر دونالد ترامب اليمينيّ المتعجرف المتغوّل الموهوم، وهي أدبيات ترجع إلى ما اجترحه الأبيض المُستعمِر حينما اجتاح بلاد الهنود الحُمر، وأعمل فيهم إبادةً وتطهيراً، بمنتهى الساديّة والعربدة، وحقّق لنفسه كياناً نهض على أكثر من تسعين مليون جمجمة بريئة! لكنه يظلّ كياناً غاصِباً قاتلاً وطارئاً، ولن يبلغ من العراقة والشرعية والأصالة ما بلغته أحدث زيتونة تتربّع على عرشها الأبديّ في جبال فلسطين، ولن يبلغ ما بلغه بيتٌ في مدينة أو تلّة فلسطينية، وُجِد منذ آدم أو ربما قبل أن يهبط من جنّة السماء إلى جنّة الأرض فلسطين.

لقد مرّ على بلادنا غير استعمار واحتلال، لكن حضورنا المتواصل ودمنا المتدفّق قد مسح كلَّ ما كان لهم من ظلال وأوهام، وعادت البلاد طاهرة تليق بأهلها وشواهدها. وأحسب أن الاحتلال الأخير هذا، سيؤول إلى الزوال والعدم، كما آل مَنْ كانوا قَبْله من القتلة الغاصبين! هذا هو منطق الأشياء والطبيعة والتاريخ، وما علينا إلاّ أن نكون عوامل تساعد على التعجيل لإنفاذ هذه الحتميّة التي تتجلّى في الأحلام والثياب والأغاني التي لا تموت. لهذا أتمنّى أن يقوم الإسرائيليون باختصار الزمن علينا وعليهم، بمعنى أن يدركوا أن أيّ احتلال سينتهي لا محالة! فلماذا لا يوفّروا دمنا ودمهم ووقتنا ووقتهم وأوجاعنا ومآسينا.. ويعلموا أن وَهْمَهم لن يفضي إلاّ إلى تيهٍ جديد، سيذهبون إليه، إذا لم ينصتوا لصوت الحق والعدالة والمنطق السّويّ! وإذا ما سأل سائلهم، فسنقول له: أعطِنا احتلالاً واحداً، عبر كل التواريخ، ظلّ وتواصل وانتصر، أو لم يكن لعنةً تتصادى في فَم الزمان؟!